د. ابراهيم زلافي - جامعة المسيلة - الجزائر
mail : brahim.zelafi@univ-msila.dz

منهج جولدزيهر في الدراسات القرآنية مذاهب التفسير الإسلامي أنموذجا

Goldzihers approach to Koranic studies

The doctrines of Islamic interpretation as a model

Date de soumission / تاريخ الاستقبال	Date d'acceptation /تاريخ القبول
29.11.2019	04.02.2020

Date de publication / تاريخ النشر

08.05.2020

ملخص

اهتم المستشرقون في دراساتهم للإسلام بدراسة القرآن الكريم، وتركزت كتاباتهم النقدية حول تفسيره، فنادوا بقراءة جديدة للقرآن الكريم تتماشى والمناهج الحديثة للعلوم الإنسانية. وهذا ما سيتجلى من خلال هذه المداخلة التي ترمي إلى تقديم لمحة عن تفسير القرآن الكريم ورجاله، وعن حركة الاستشراق واهتماماتها بالدراسات القرآنية، وعن موقفهم من كتب ومناهج التفسير. وكان ممن اهتم بتفسير القرآن الكريم المستشرق المجري اليهودي الأصل إجنتس جولدزيهر (1850- 1921م) Ignaz Goldziher وهو من أشهر المستشرقين الذين اشتغلوا بالفكر الإسلامي، وخاصة القرآن الكريم، ألف كتاباً عن علم التفسير الإسلامي تحت عنوان " مذاهب التفسير الإسلامي" عام 1920.

الكلمات المفتاحية

تفسير ، القرآن، الاستشراق، مذاهب، جولدزيهر.

Abstract

Orientalists were interested in studying Islam and the Quran. They focused their critical writings on its interpretation and called for a new reading of the Quran consistent with modern approaches to the human sciences. And this will be reflected through this intervention, which aims to

give an insight into the interpretation of the Quran and their analysts, the movement of Orientalism and interest in Quranic studies, as well as their position on the books. and methods of analysis. The Hungarian, of Jewish origin, Ignaz Goldziher (1850 - 1921) was one of the most famous Orientalists engaged in Islamic thought, especially the Holy Quran. He wrote a book on the science of Islamic interpretation under the title "The Doctrines of Islamic Interpretation" in 1920.

key words

Interpretation , Quran, orientalism, doctrines, Goldziher.

الاستشراق والقرآن الكريم

شكل نزول القرآن الكريم بداية تاريخ الأمة الإسلامية وولادة وجودها العلمي والحضاري بين الأمم، ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا كان القرآن الكريم وما زال هدفاً وحقلاً للدراسات الاستشراقية، التي جندت لهذه المهمة الآلاف من المفكرين ورجال الكنيسة، والدوائر السياسية والعسكرية، مسلحين بشتى الوسائل المادية والمعنوية، هؤلاء الذين سخروا جهودهم من أجل محاربة القرآن الكريم، ولم تتوقف جهودهم عند مجادلة المسلمين وإنما تعدتها إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، ثم إلى اللغات الأوربية الأخرى. انشغلت دوائر الاستشراق في القرن العشرين بتفسير القرآن الكريم، ولم يكن هذا الاهتمام بهدف التعريف بالإسلام أو تقريبه من القارئ الأوربي الذي يجهل اللغة العربية، وإنما من أجل الطعن فيه، وإبعاد الغرب عنه وتنفيره منه، وقد كثف الاستشراق من اهتمامه وإنتاجه عبر مؤلفاته، ومن خلال دوائره العلمية المعتمدة كدائرة المعارف الإسلامية، ودائرة معارف الديانات والأخلاق وغيرها من الدوائر.

كما اتجه المستشرقون في بداية القرن العشرين إلى تحقيق أمهات الكتب الإسلامية، ومن ضمنها كتب تفسير القرآن الكريم، فنجد:

- كتاب " أنوار التنزيل وأسرار التأويل" المعروف باسم "تفسير البيضاوي" الذي ألفه ناصر الدين الشيرازي الشافعي البيضاوي (ت 685هـ). حققه المستشرق الألماني جورج فيلهلم فريتايج (1788-1861) George Wilhelm Freytag وذلك عام 1845(01).
- كتاب "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي (467هـ-538هـ). حققه المستشرق الانكليزي ليز وليم ناسو(02) (1825-1889) Liz Welluam Nassau، وكذلك كتاب "فتوح الشام" للواقدي، و"تاريخ الخلفاء" لجلال الدين السيوطي.

- كتاب " التيسير في القراءات السبع" وكتاب "المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النَّقْط" لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت444هـ). قام بتحقيقه المستشرق الألماني أتو برتسل(1893-1941)Otto Bretzl عام 1930م(03).

كما توسعت اهتمامات المستشرقين في الربع الأول القرن العشرين في الدراسات القرآنية، فكتبوا مؤلفات حول تفسير القرآن الكريم تمثلت في:

- كتاب "بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره" للمستشرق الألماني إرنست إميل هورسفلد (1879-1948) Ernst Emil Herzfeld نشره عام 1902م.
- كتاب "مذاهب التفسير الإسلامي" للمستشرق المجري إجنتس جولدزيهر Ignaz Goldziher عام 1921م. نقله إلى اللغة العربية عبد الحليم النجار عام 1955م.
- مقال "تفسير القرآن" للمستشرق الألماني ريتشارد هارتمان نشره في مجلة الدراسات الشرقية عام 1924م(04).
- مقال "الزيدية وشرح المعتزلة للقرآن" للمستشرق الايطالي ميكل أنجلو جويدي Mechel Angelo Guidi (1886-1946) عام 1925م(05).

شهد النصف الثاني من القرن العشرين حركة حثيثة للمستشرقين لتطبيق المناهج النقدية على القرآن الكريم، ليتسنى لهم تفسيره أو إعادة قراءته من جديد، فنشر:

- المستشرق الفرنسي جاك جومييه (1914-2008) Jacques Jomier كتابه"تفسير القرآن عند مدرسة المنار" في دراستين الأولى تخص تفسير المنار لمحمد عبده ورشيد رضا عام 1954م، والثانية تخص الجواهر في تفسير القرآن الكريم لجوهري طنطاوي عام 1957م.
- المستشرق الفرنسي رجيس بلاشير (1900-1973) R.Blachere كتابه "القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره عام 1974، وكتابه" مدخل إلى القرآن"(06)، وكتاب آخر " تاريخ الأدب العربي.
- جاك أوغيستن بيرك (1910-1995) Jacques Augustin Berque كتابه "إعادة قراءة القرآن " Relire Le Coran (07).

كتاب "مذاهب التفسير الإسلامي" لجولدزيهر

يعد كتاب "مذاهب التفسير الإسلامي" للمستشرق المجري Ignaz Goldziher اليهودي الأصل، من أشهر كتب الاستشراق في حقل التفسير، وقد اتخذه المستشرقون مصدراً ودليلا لكتاباتهم حول تفسير القرآن الكريم، ونظراً لقيمته العلمية في دوائر الاستشراق فقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية مرتين: الأولى قام بها علي حسن عبد القادر في الأربعينيات من القرن

العشرين، والثانية عبد الحليم النجار عام 1955م(08). جاء في مقدمة الكتاب لمترجمه عبد الحليم النجار بأن الترجمة الأولى لهذا الكتاب كانت على يد علي حسن عبد القادر، وبما أنها كانت ترجمة جزئية فقد حفزه ذلك على القيام بترجمة كاملة لهذا الكتاب تسد فراغاً ماثلا في الدراسات الإسلامية(09). وقد أثنى المترجم على هذا الكتاب، وعدَّه من الأعمال المبتكرة من حيث المنهج والأسلوب والبحث، وأوصى بالاهتداء به في البحوث القرآنية وغير القرآنية، منبها إلى بعض الأخطاء التي يراها طفيفة هينة، غير ضارة بسبب اختلاط الأمر على المؤلف أو جهله بأسرار اللغة العربية(10).

كان أول من رد على مطاعن Goldziher في القراءات القرآنية محمد طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط في كتابه "تاريخ القرآن وغرائب رسمه" في طبعته الأولى عام 1947م، فقد جاء في الفصل الذي عنوانه: "الرد على الإفرنج" القائلين باستنباط القراءات من الرسم، أمثال جولدزيهر ونولدكه بأن: "القراءات نشأت عن عدم وجود الشكل والنقط على الحروف، ونحن نرها على قولهم هذا بالبرهان القاطع"(11).

كما صنف عبد الفتاح شلبي كتاباً باسم "رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين" عام 1960م، ناقش فيه مزاعم Goldziher، حيث جاء في قول: "وأرجو أن أدفع ما رمى به (جولدزيهر) عقيدة المسلمين في كتابهم المحفوظ"(12). ثم ألَّف عبد الفتاح القاضي كتابه "القراءات في نظر المستشرقين والملحدين" عام 1972م، ردَّ فيه على شبهات Goldziher ، حيث جاء في قوله: "وقد تبين لي –بعد البحث الهادئ، والتمحيص المتريث- أن جولدزيهر في بحثه في القراءات قد حاد عن الجادة، وتنكب الصراط السوي، وجانب التوفيق فيما كتب، وتورط في أخطاء ما كان لمثله أن ينزلق فيها"(13). كذلك كان لإبراهيم عبد الرحمان خليفة رأيه في كتاب Goldziher، حيث كشف عن غاية هذا الأخير بتأليفه عام 1979م لكتابه "دراسات في مناهج المفسرين" ، جاء فيه: "وغاية هؤلاء المستشرقين من هذا أن يخرجوا بنتيجة حتمية لهذا الصنيع من الأمة في زعمهم هي أن القرآن ليس كلام الله"(14).

من هو جولدزيهر؟ إجنتس جولدزيهر (1850- 1921م) Ignaz Goldziher

مستشرق مجري من أسرة يهودية، قضى السنين الأولى من دراسته في بودابست، ثم ذهب إلى برلين عام 1869م حصل على الدكتوراه عام 1870م، ثم عاد إلى بودابست وعين مدرسا مساعدا في جامعة بودابست سنة 1872م ،ثم صار أستاذا للدراسات الشرقية سنة 1894م، عني بالدراسات العربية و الإسلامية وخاصة الدينية، زار سوريا وأقام بمصر وتعلم اللغة العربية في الأزهر(15). يعد المؤسس الحقيقي للدراسات الاسلامية في أوربا، فقد تعاون مع 85 مجلة دورية، وثماني موسوعات علمية، وكتب ثلاثين مقالاً في الموسوعة الاسلامية، وبلغت

مقالاته العلمية 201 مقالاً، وكتب 35 كتاباً، نقلت مكتبته بعد وفاته إلى الجامعة العبرية بالقدس عام 1925م(16). له مؤلفات وأبحاث نشرت في مجلات دوائر الاستشراق منها:

أ- مقالات وبحوث

1- الظاهرية مذهبهم وتاريخهم صدر عام 1884م.

2- دراسات إسلامية صدر الجزء الأول عام 1889، والجزء الثاني عام 1890م.

3- بحث حول الإسلام والدين الفارسي صدر عام 1900م.

4- آداب الجدل عند الشيعة عام 1874م.

5- الإسلام عام 1881م.

6- الحديث في الإسلام 1909م.

7- إخوان الصفا 1909م.

8- فخر الدين الرازي 1912م.

9- تكريم الأولياء في الإسلام 1912م.

ب- مؤلفات منها

1- ترجمة " ديوان الحطيئة " شرح السكري إلى الألمانية عام 1893م.

2- ترجمة كتاب " توجيه النظر إلى علم الأثر " للشيخ طاهر الجزائري عام 1898م.

3- كتاب "محاضرات في الإسلام" صدر عام1910م، وكتاب "اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين" صدر عام 1920م.

ج- تحقيق ونشر

- " كتاب المعمرين من العرب وطرفٍ من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم" لأبي حاتم السجستاني البصري (ت235هـ). نشره عام 1889م(17).

منهج جولدزيهر في الدراسات القرآنية

يطبق جولدزيهر Goldziher في دراسته لكتب التفسير منهجاً نقدياً تاريخياً(18)، حيث يضع فرضيات مسبقة ويدلل على صحتها وإن كانت خاطئة. يقول المستشرق الألماني رودي بارت (1901-1983) Rudi Paret: "ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي... ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي تشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن"(19). ويتحدد خطأ جولدزيهر المنهجي في وضع النتائج وفق أفكار مسبقة حول الموضوع، واعتماده على منهج الأثر التاريخي(20).

وتتلخص مناهج بعض المستشرقين في دراساتهم للقرآن الكريم وعلومه في النقاط التالية:

- يدعي بعضهم أنهم يتخذون من الموضوعية والنزاهة منهجا لهم في دراساتهم للقرآن الكريم، غير أن آراءهم وأحكامهم تعكس عدم نزاهتهم.
- تعمل فئة منهم على إثبات فرضية أن القرآن الكريم من تأليف محمد -صلى الله عليه وسلم- وذلك من خلال رد أصوله إلى الشعر الجاهلي أو إلى كتب العهد القديم والجديد.
- يعمل بعض المستشرقين على تحريف الحقائق وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم، من خلال اعتمادهم على الروايات الشاذة، وإهمال الروايات الصحيحة.
- ينتقص بعضهم من قيمة مصنفات تفسير القرآن الكريم، ويدعون إلى إعادة تفسيره وقراءته وفق مناهج العصر الحديث.

يقول المستشرق الفرنسي إميل درمنغهم (1892-1971) Emile Dermenghem عن هؤلاء المستشرقين: "من المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين - من أمثال موير ومرجوليوت ونولدكه وسبيرنجر ودوزي وغريم وجولدزيهر وغيرهم - في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص، ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة"(21).

يقول عمر بن ابراهيم رضوان : "ولا شك أن جولدزيهر بدل جهداً كبيراً في الاطلاع على كتب التفسير المختلفة فجاء خليطاً بين آراء علمية صائبة تارة وآراء الدافع للقول بهوى دفين وحقد أسود... وكعادته يرفع الشيء حتى يجعله كالأصل الذي لا يستغنى عنه، ثم يبدأ بعد ذلك يكيل التهم له والتشكيك فيه(22).

قدم جولدزيهر Goldziher قراءة تاريخية لتفسير القرآن الكريم من شتى المذاهب، وتتبع ذلك انطلاقاً من مراحل التفسير الأولى في عصر النبوة إلى مرحلة العصر الحديث، والتي ركز فيها على حركة الإصلاح ورموزها كالأفغاني ومحمد عبده وغيرهم. والمنهج التاريخي أو القراءة التاريخية التي سلكها Goldziher والتي سار عليها من سبقه من المستشرقين، يقول عنها يوهان فوك: "فقد بقي على إجنتس جولزيهر أن يطبق مناهج البحث التاريخي على الإسلام بمجموعه، وأن يفهمه كظاهرة تاريخية حضارية، رسمت تطوره الأفكار الدينية بشكل أساس(23).

قسم Goldziher دراسته إلى ست مراحل، أطلق على المرحلة الأولى "المرحلة الأولى للتفسير"، افتتح حديثه بمقولة مأثورة للعالم اللاهوتي بيتر فيرنفيلس Peter WerenFels التابع للكنيسة الحديثة، والذي جاء في قوله عن الإنجيل: "كل امرئ يطلب عقائده في هذا الكتاب المقدس، وكل امرئ يجد فيه على وجه الخصوص ما يطلبه"(24). ثم يصف القرآن الكريم

بالاضطراب وعدم الثبات بقوله: "فلا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن(25). وغاية Goldziher من وصفه للقرآن الكريم بالاضطراب، هي محاولة منه لإقناع القارئ الأوربي بأن مصادر هذا الكتاب متنوعة، وأن نصوصه جُمعت من ثقافات وديانات مختلفة، وأن مؤلفه بشر. هذه هي النتيجة التي بنى عليها Goldziher دراسته، وحاول أن يثبت صحتها من خلال عرضه لمراحل تفسير القرآن الكريم.

حاول Goldziher تأكيد صحة طرحه السابق بشبهة أخرى تتعلق بالقرآن الكريم وسوره، فنجده يقول: "ليس هناك نص موحد للقرآن، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته المختلفة أولى مراحل التفسير، والنص المتلقى بالقبول، الذي هو لذاته غير موحد في جزئياته(26). وجاء الرد على هذه الشبهات مؤكداً على صحة القرآن الكريم وسلامته، وأن : "النص القرآني لم يعتره، ومحال أن يعتريه اضطراب، وأن ينزل بساحته قلق... وهذا منفي عن القرآن قطعاً، فإن الروايات المختلفة، والوجوه المتعددة التي تواردت على النص القرآني لا تناقض فيها، ولا تعارض في معانيها، ولا تضارب في المراد منها، بل كلها يظاهر بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض(27).

تناول في هذه المرحلة قضية الاختلاف في القراءات القرآنية، محاولا من خلالها البرهنة على صحة النتيجة التي رسمها في بداية دراسته. يرى Goldziher بأن القراءات القرآنية تمثل المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم. وكعادة نفر من المستشرقين يضع Goldziher النتيجة ويبحث لها عن فرضيات، فالنتيجة عنده وجود اضطراب وتناقض في القرآن وهذا ما تعبر عنه اختلافات القراءات، أما الأسباب فهي تكمن حسب رأيه في ارتباط القراء باتجاهات مذهبية، حيث استغلوا خلو الخط من النقط والشكل فحولوا كلمات النص القرآني في قراءتهم لتعبر عن أفكارهم وتدعم اتجاهاتهم(28). ونجد تفنيداً لعدم صحة هذه الشبهة في القول: "وإنك لو سبرت القراءات –متواترها ومشهورها وصحيحها- لوجدتَ أن الاختلاف بينها لا يعدو نوعين: الأول أن تختلف القراءتان في اللفظ وتتفقا في المعنى، والثاني أن تختلف القراءتان في اللفظ والمعنى معاً مع صحة المعنيين كليهما، فلا يكونان متناقضين ولا متعارضين، بل يمكن اجتماعهما في شيء واحد(29).

ينهي Goldziher هذه المرحلة بقوله: "ويمكننا أن نستخلص من التجارب في هذه المرحلة أنه، فيما يتعلق بإقامة النص المقدس في الإسلام الأول، كانت تسود حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية... وربما مثل ذروة هذه الظاهرة ذلك الخبر الذي يفيد أن الخليفة عثمان نفسه قرأ القرآن أحياناً على وجه يختلف عن النص في الكتابة المأثورة التي رتب عملها ثم اعتمدها"(30).

يزعم جولدزيهر أن تعدد القراءات دلالة على حرية القراءة للنص القرآني بالمعنى، والتي وصلت إلى حد الحرية الفردية، وقد حاول زرع هذه الشبهة وتثبيتها بالتكرار، وهي من أخطر الشبهات التي بثها جولدزيهر في كتابه، ليصل إلى نتيجة أن الصحابة قد غيروا وحرفوا في آيات القرآن الكريم خدمة لمصالحهم وأهدافهم الدينية والدنيوية.

استهل Goldziher المرحلة الثانية والتي عنونها بـ "التفسير بالمأثور" بقوله: "إذا نظرنا إلى أدب التفسير الذي بلغ نموه ثروة عظيمة الخصب، عسر علينا بادئ ذي بدء أن نفهم أننا نقف تجاه نوع من الأدب، لم تلق أوائله في الدوائر الدينية من صدر الإسلام عدم التشجيع فحسب، بل وضع الممثلون الأتقياء للمصالح الدينية أمام هذه الأوائل علامات الإنذار والتحذير... وحتى عهد متقدم من القرن الثاني للهجرة، نجد شواهد على أن الاشتغال بالتفسير كان منظوراً إليه بعين الارتياب..."(31)[31]. وقدم بعض المزاعم أو الفرضيات ليدلل بها على صحة طرحه وهي:

- دعوى امتناع بعض الصحابة عن تفسير القرآن الكريم، وذكر منهم عمر بن الخطاب، وأتى بقصة موضوعة ليستشهد بها، حيث يقول: "وفي دوائر فقهاء الحنابلة تحكى بارتياح واقعة من زمن عمر، تُصور كراهية الخليفة لتقليب الفكر في معنى ما تشابه من آيات القرآن. فيروى أن رجلا يقال له ابن صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه الخليفة- المعروف بأنه صاحب الدرة- وضربه بعراجين من النخل حتى ترك ظهره دَبَرَة، ثم تركه..."(32).
- استعانة الصحابة باليهود والنصارى لتفسير القرآن الكريم، حيث يقول: "كان هناك ماورد في الكتب السابقة من مختلف القصص التي أجملها محمد نفسه بمنتهى الإيجاز، وأحياناً على وجه متداخل... فقد وجدت طائفة من علماء الكتاب الفضوليين الذين سدوا ثغرات القرآن بما تعلموه من اتصالهم باليهود والنصارى، وأتموا ما تلقوه عنهم من القصص، التي كثيراً ما رددوها عن سوء فهم لها، بنتاج خيالهم الخاص، وأرسلوا كل ذلك على أنه تفسير للقرآن"(33). ويزعم أن ابن عباس كان لا يرى غضاضة عندما ينتابه الشك في التفسير أن يرجع إلى أهل الكتاب ومنهم أبو الجَلْد (غيلان بن فروة الأزدي) الذي كان يثني عليه بأنه "قرأ الكتب" وكعب الأحبار(34).

حاول Goldziher ترسيخ فكرة أن في القرآن اضطرابا وتناقضاً، وأنه مزيج من الديانتين اليهودية والنصرانية، وهذا من خلال ادعائه وجود اتجاهات مختلفة في تفسير القرآن، وركز على مرحلة تفسير القرآن بالمأثور، مقدما بعض الفرضيات الواهية، والتي تتمثل في أن الصحابة كانوا ينفرون من تفسير القرآن، وكانوا يستعينون باليهود والنصارى عند الحاجة، كما يزعم وجود اختلاف وتناقض في التفسير بين المفسرين في تلك الفترة. وبعد هذه الفرضيات يعلن

Goldziher عن الخلاصة بعد الملاحظة بقوله: "من الظواهر التي لاحظناها حتى الآن، يمكن استخلاص أنه لا يوجد تفسير مأثور موحد للقرآن، فمن ناحية تُروى عن صحابة مختلفين وجوه مختلفة، وكثيراً متعارضة في تفسير مواضع من القرآن، ومن ناحية أخرى تنسب إلى صحابي واحد بعينه أقوال مختلفة في دلالة بعض مفردات أو سائر تراكيب جملية"(35).

خلاصة حديثه عن هذه المرحلة أنه يؤكد للقارئ الأوربي وجود تضارب في تفسير القرآن بالمأثور، بمعنى وجود تناقض في القرآن، وأن هذا التناقض دليل على بشريته.

فقد جاء في قوله: "فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً"(36). وأنه يحتوي على أساطير وقصص ناقصة أخذها النبي من اليهود والنصارى. ولم يقف Goldziher عند هذا الحد، ولينسب صفة العجز والجهل إلى الصحابة، وصفة العلم والمعرفة إلى اليهود والنصارى، زعم أن الصحابة عجزوا عن تفسير القرآن وسد النقص في آياته، فاستعانوا باليهود والنصارى لتكملة الأساطير والقصص الناقصة في القرآن.

تناول جولدزيهر Goldziher في المرحلة الثالثة التي عنوانها "التفسير في ضوء العقيدة (مذاهب أهل الرأي)" قضية التفسير بالرأي، ولترسيخ فكرة التناقض والاضطراب في القرآن وتفسيره، اعتبر جولدزيهر التفسير بالرأي خروجاً عن التفسير بالمأثور. أثنى على المعتزلة واعتبرهم أول من فسر القرآن الكريم بالرأي، وقدم تفسيرهم على أنه التفسير الأمثل للقرآن الكريم، مدعياً أنهم حكموا العقل ونفوا كل ما لم يتوافق معه. وعمم ما فعله المعتزلة على جميع المفسرين بالرأي، حيث يقول في حديثه: "حدث انشقاق على تفسير القرآن بالمأثور، دون أن يحس أو يقصد ممثلو هذا الانشقاق من القدماء أن يكون تفسيرهم حرباً على الرواية والنقل. وصدر ذلك لأول مرة عن مذهب أهل الرأي الإسلاميين... ولا ريب أن هؤلاء الناس الأتقياء – ويسمون المعتزلة- قد وقعوا هوناً في تعارض مع تصورات سائدة، بدت فيها الألوهية المجسمة غير منفصلة عن صفاتها، ولم تفهم القدرة الإلهية فهماً يختلف كثيراً عن قدرة سلطان يتصرف دون مسئولية، باختيار لا تحده قيود... "(37).

يصف جولدزيهر Goldziher عمل المعتزلة بالعمل القيم، وهذا لاتصاله بالقرآن "والواقع أن المعتزلة يسلكون طريقهم الخاص في دائرة التفسير المتصل بالعقائد، فهم لم يبالوا –هنا- أن يزيلوا من طريقهم ركاماً كبيراً من التصورات الشعبية، والآراء المروية التي لا تتفق مع تصورهم المستنير للألوهية"(38). فالتفسير بالمأثور في رأي Goldziher ما هو إلا تصورات شعبية متناقضة ومضطربة، أما التفسير بالرأي فهو عنده تفسير مستنير دقيق.

خلاصة هذه المرحلة أن Goldziher أثنى على تفسير المعتزلة للقرآن الكريم، ووصفهم بأصحاب العقل الحر. وقد علق عمر بن ابراهيم عن رأي Goldziher بأنه غير صائب لما لهذا المذهب من فساد في الرأي وتحريف في تفسير آيات القرآن الكريم، تخالف فيه هذه الفرق رأي أهل السنة والجماعة، وأن ثناء Goldziher على هذه الفرق بسبب ما لها من دور ايجابي في خدمة أغراض المستشرقين في محاربتهم للقرآن الكريم(39). ويشير المستشرق الفرنسي هنري ماسيه (1886- 1969م) Henri Massé إلى خطورة مذهب المعتزلة الذي ساهم في تمزيق النسيج الإسلامي بقوله: "وظل مذهب المعتزلة على خطورته، واستمرت المعارك بين المسلمين التقليديين والمعتزلة العقليين في تمزيق الإسلام"(40).

جعل عنوان المرحلة الرابعة " التفسير في ضوء التصوف الإسلامي" استهلها بقوله: "في الحق، ليس عملاً هيناً على متصوفة الإسلام أن يجدوا أفكار التصوف متراثية في القرآن، وأن يروا لأنفسهم حقاً في اتخاذ كتاب الإسلام المقدس شاهد صدق على مذاهبهم الدينية والفلسفية"(41). ويربط جولدزيهر Goldziher بين التصوف والمذاهب الإغريقية القديمة كالأفلاطونية في قوله: "... الأفلاطونية الحديثة وهي أحد منابع المعرفة عند المتصوفة... ويمكن التعرف بسهولة حقاً في هذه الأفكار على الثمرة الإسلامية للبذور الهلّينستية"(42). ثم يقول: "وإذا نحن أردنا أن نرجع إلى الأصل في افتراض إمكان التفسير عن طريق الرمز والإشارة، فسنصل أخيراً إلى أروقة أفلاطون الإلهي وإلى مذهبه المثالي"(43)[43].

دافع جولدزيهر Goldziher عن رجال التصوف أمثال: الحلاج،ابن عربي، ومجد طريقة التفسير عند إخوان الصفا المسماة التفسير الإشاري، والتي يعتبرها ذات طابع تفسير المدراش عند اليهود(44). والتي يرى بأن أفكارها مشتركة مع المتصوفة، لأن جذورهما جميعاً تمتد إلى الأفلاطونية الحديثة وإلى الغنوصية(45). ويذهب إلى القول بأن محي الدين بن عربي قد عمل بأفكار الفلسفة الإغريقية كون التصوف يتبع للفلسفة الأفلاطونية الحديثة و كان يُدخل هذه الأفكار في مضمون آيات القرآن... وكغيره من معتنقي الأفلاطونية الحديثة الإسلاميين (وأيضاً اليهود) تمكن بن عربي من هذه النظريات الأخلاقية(46).

لا تخلو آراء Goldziher من نظرته الاستشراقية التي تشير إلى أن القرآن مزيج من الديانات والثقافات السابقة، فهو يرجع التراث الصوفي كله إلى الأفلاطونية الحديثة وإلى رجال الدين النصارى واليهود. وهي نفس النظرة التي نجدها عند هنري ماسيه (1886- 1969م) Henri Massé في قوله: "وفي بداية الإسلام ظهرت ممارسة النسك التي تعود دون شك إلى تأثيرا مسيحية"(47). أورد أندريه تور (1885-1947) Andrae Tor منهج بعض المستشرقين في إرجاعهم لأصول التصوف الإسلامي إلى ديانات أخرى بقوله: "أشار بعض الباحثين إلى الفرس

الذين كان لديهم، على ما يقال، ميل شديد إلى التدين الصوفي يسري في عروقهم، وأشار بعض آخر إلى الهند وما ولدته من آثار، وعلى وجه الخصوص إلى البوذية وديانة الفيدا، وتوجه آخرون بأنظارهم صوب صوفية الأفلاطونية الجديدة"(48).

تناول في المرحلة الخامسة "التفسير في ضوء الفرق الدينية" وعرض موقف هذه الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة من تفسير القرآن الكريم، حيث حاولت كل فرقة حسب رأيه أن تجد لها موطأ قدم في القرآن يؤيد رأيها، وعمم ذلك على جميع الفرق، حيث جاء في حديثه: "وعلينا أن نبحث بوجه خاص: على أي وجه أُدخلت في القرآن مصالح الفرق التابعة لحزب الشيعة، ومبادئها الأساسية المميزة لها. ذلك أن علماء الدين عند هذه الطائفة أيضاً لم يضنوا بجهد في سبيل أن يجدوا مبادئهم المميزة لعقيدتهم الدينية والسياسية ثابتة في القرآن"(49). ويرى أن الآراء المختلفة في تفسير القرآن لم تُقم على أساس علمي وإنما بنيت على أساس أهواء سياسية ومذهبية بين مراكز القوة في المجتمع الإسلامي. واختتم هذه المرحلة بالإشارة إلى تأثر هذه المذاهب بتعاليم الغنوصية(50). وكذلك نجد نفس الفكرة عند هنري ماسيه الذي يرى أن الفكرة المسيحية ظهرت في كل عصر من تاريخ الإسلام، وأن فكرة الاعتقاد برجوع الميت فكرة مسيحية، وهذا الاعتقاد نجده عند بعض الفرق الإسلامية(51).

أما المرحلة السادسة والأخيرة فكانت تحت عنوان " التفسير في ضوء التمدن الإسلامي" وفي هذه المرحلة تضافرت جهود المستشرقين من أجل وضع منهج استشراقي لتفسير القرآن الكريم يقوم على إعادة البحث في تاريخ القرآن، ودراسة أمهات التفسير الإسلامية دراسة نقدية وإعادة تفسيره في ضوء العلوم الإنسانية المعاصرة كالأنتروبولوجيا وعلم تاريخ الأديان. ظهر هذا الطرح في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إبان سيطرة الغرب على العالم الإسلامي، وكأن المسلمين لم يعرفوا التمدن إلا من خلال الغرب.

يستهل حديثه بقوله: "هل الإسلام وحياة الحضارة في التمدن الحديث ضدان على طرفي نقيض، غير قابلين لتسوية أو توفيق"(52). ويجيب عن هذا السؤال بالإيجاب، مستنداً إلى علماء التفكير الحديث أمثال أمير علي الذي يعتبره من أبرز قادة النهضة الإسلامية في الهند بمؤلفه "روح الإسلام" 1902م، وأحمد خان بهادير من الهند وهما جماعة يسمون أنفسهم بالمعتزلة الجدد، الذين يقولون بتطور التشريع الإلهي تطوراً تاريخياً، ويرون أن التشريعات في عهد النبي لا تلائم العصر، ثم يختم كتابه بالحديث عن التفسير العصري للقرآن، والذي يعتبره طريق المجددين الذين يحملون شعار أن باب الاجتهاد مفتوح، والذين حملوا راية الدعوة إلى تطهير الإسلام من الشوائب التي لصقت به، ويذكر منهم: ابن تيمية، وجمال الدين الأفغاني

ومحمد عبده من الذين أسسوا لبداية حركة الإصلاح في مصر. كما يصف محمد عبده بالمجدد الفعلي لحركة التفسير في مصر.

خاتمة

تعامل جولدزيهر Goldziher مع موضوع التفسير بمنهجية غير علمية، حرص فيها على الطعن في القرآن الكريم والسنة النبوية ورواة الحديث، وذلك بإصدار الأحكام الجزافية والآراء الشاذة، التي يصف فيها القرآن الكريم بالتناقض والاضطراب، ويجعل تأليفه بشرياً مستوحى من الديانتين اليهودية والنصرانية. تعمد Goldziher النيل من مصداقية التفسير والمفسرين، بدراسة تفسير القرآن دراسة موجهة نحو نتيجة موضوعة مسبقاً، وصف الاختلافات في القراءات والتفسير على أنها اضطرابات وتناقض في القرآن الكريم. أشادة ببعض الفرق التي وجد فيها الاستشراق ضالته، فجعلها Goldziher المثل الأعلى للإسلام. كما دعا إلى دراسة القرآن الكريم دراسة أدبية وفق مناهج النقد الحديث.

الهوامش

01. نجيب العقيقي(1965). المستشرقون.مصر: دار المعارف. ص 697.

02. المرجع نفسه. ص 485.

03. عبد الرحمن بدوي(1993). موسوعة المستشرقين.بيروت: دار العلم للملايين.ص 82.

04. نجيب العقيقي. المرجع السابق. ص 790.

05. المرجع نفسه، ص 382.

06. عمر بن ابراهيم رضوان(1992). آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره. الرياض: دار طيبة. ص113.

07. عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس(1423ه).علم التفسير في كتابات المستشرقين.السعودية:مجلة جامعة أم القرى. ص84.

08. المرجع نفسه.ص84.

09. إجنتس جولدزيهر(1955). مذاهب التفسير الإسلامي.بغداد: مكتبة المثنى.ص3.

10. المصدر نفسه. ص ص 4-5.

11. محمد طاهر بن عبد القادر(1946). تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه.جدة: مطبعة الفتح، ص121.

12. عبد الفتاح إسماعيل شلبي(1999). رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم.القاهرة: مكتبة وهبة.ص 29.

13. عبد الفتاح عبد الغني القاضي(1972). القراءات في نظر المستشرقين والملحدين.القاهرة: دار مصر للطباعة. ص8.

14. إبراهيم عبد الرحمن خليفة(1979). دراسات في مناهج المفسرين.القاهرة: جامعة الزهر.ص68.
15. عبد الرحمن بدوي. المرجع السابق. ص ص 197-200.
16. ساسي سالم الحاج(2002). نقد الخطاب الاستشراقي.بيروت: دار المدار الإسلامي. ص172.
17. نجيب العقيقي. المرجع السابق. ص ص906-908.
18. ساسي سالم الحاج. المرجع السابق. ص 174.
19. رودي بارت(1967). الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية.القاهرة: دار الكتاب العربي. ص10.
20. ساسي سالم الحاج. المرجع السابق. ص 179.
21. ينظر: عمر بن ابراهيم رضوان. المرجع السابق. ص89.
22. المرجع نفسه. ص702.
23. يوهان فوك(2001). تاريخ حركة الاستشراق.بيروت:دار المدار الإسلامي. ص 236.
24. إجنتس جولدزيهر.المصدر السابق. ص3.
25. المصدر نفسه. ص4.
26. المصدر نفسه. ص6.
27. عبد الفتاح عبد الغني القاضي.المرجع السابق. ص ص 11-12.
28. إجنتس جولدزيهر.المصدر السابق. ص7.
29. عبد الفتاح عبد الغني القاضي.المرجع السابق. ص ص 14-15.
30. إجنتس جولدزيهر، المصدر السابق. ص38.
31. المصدر نفسه. ص 73.
32. المصدر نفسه. ص74.
33. المصدر نفسه. ص75.
34. المصدر نفسه. ص ص85-89.
35. المصدر نفسه. ص104.
36. ينظر: علي بن ابراهيم النملة(2010). نقد الفكر الاستشراقي.الرياض:مكتبة الملك فهد. ص 161.
37. المصدر نفسه. ص 121.
38. المصدر نفسه. ص135.
39. عمر بن ابراهيم رضوان. المرجع السابق. ص 740.
40. هنري ماسيه(1988). الإسلام.بيروت: منشورات عويدات. ص 216.
41. جولدزيهر. المصدر السابق. ص201.
42. المصدر نفسه. ص ص 201-202.
43. المصدر نفسه. ص 204.
44. المصدر نفسه. ص216.

45. المصدر نفسه. ص229.
46. المصدر نفسه. ص 256.
47. هنري ماسيه. المرجع السابق. ص 217.
48. أندريه تور(2003). التصوف الإسلامي.ألمانيا: منشورات الجمل. ص20.
49. جولدزيهر. المصدر السابق. ص286.
50. المصدر نفسه. ص 336.
51. هنري ماسيه. المرجع السابق. ص 199.
52. جولدزيهر. المصدر السابق. ص337.

قائمة المصادروالمراجع

1. إجنتس جولدزيهر(1955). مذاهب التفسير الإسلامي. تر: عبد الحليم النجار. بغداد:مكتبة المثنى.
2. أندريه تور(2003). التصوف الإسلامي. تر: عدنان عباس علي.ط1.ألمانيا:منشورات الجمل.
3. رودي بارت(1967).الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية.تر:مصطفى ماهر.القاهرة:دار الكتاب العربي.
4. عبد الرحمن بدوي(1993). موسوعة المستشرقين.ط3.بيروت: دار العلم للملايين.
5. عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس(1423ه). علم التفسير في كتابات المستشرقين. مجلة علوم الشريعة والدراسات الإسلامية. ج15. ع25. السعودية: جامعة أم القرى.
6. علي بن ابراهيم النملة(2010). نقد الفكر الاستشراقي.ط1.الرياض: مكتبة الملك فهد.
7. عمر بن ابراهيم رضوان(1992). آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، ج2.ط1.الرياض: دار طيبة.
8. هنري ماسيه(1988). الإسلام. تر: بهيج شعبان.ط3.بيروت: منشورات عويدات.
9. نجيب العقيقي(1965). المستشرقون.مصر:دار المعارف.
10. يوهان فوك(2001).تاريخ حركة الاستشراق. تر: عمر لطفي العالم.ط2.بيروت:دار المدار الإسلامي.